

الضحك، المضحك والإضحاك... بين التحليلات السيكولوجية

والدلالات الفلسفية

Laugh, laughter, laughing ... Between psychological analyses and philosophical connotations

د. لامية طالة *

كلية علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر 3

lamia.tll@gmail.com

تاريخ القبول: 07/05/2022

تاريخ الاستلام: 15/08/2021

ملخص:

استتارت ظاهرة الضحك من قديم الزمان اهتمام الفلاسفة وعلماء النفس، وليس في وسعنا أن تأتي في هذا المقال على تاريخ مفصل لتطور النظريات الفلسفية والسيكولوجية في تفسير الضحك. حيث سنحاول تحديد العوامل الاجتماعية المؤثرة على نمو روح الفكاهة، أو التعرض للبحث في صميم الوظيفة النفسية التي يقوم بها الضحك في حياة الأفراد والجماعات. كلمات مفتاحية: الضحك، الإضحاك، التحليلات السيكولوجية، الدلالات الفلسفية.

Abstract:

The phenomenon of laughter from ancient times has elicited the interest of philosophers and psychologists, and we cannot come up with a detailed history of the evolution of philosophical and psychological theories in the interpretation of laughter.

We're going to try to identify the social factors that affect the growth of the sense of humor, or the exposure to research at the heart of the psychological function of laughter in the lives of individuals and groups.

Keywords: Laugh, Laughing, Psychological analyses, Philosophical connotations.

مقدمة:

يشير صامويل جونسون في مقالة بعنوان الصعوبة في تحديد الكوميديا إلى أنه على الرغم من أن البشر كائنات حكيمة وتتجلى حكمتهم في طرق مختلفة، إلا أنهم يضحكون بالطريقة ذاتها، لكن لا يزال هذا الأمر غير مؤكد، فالضحك عبارة عن لغة تعبر عن نفسها في العديد من الأساليب المميزة والمختلفة، وبالتالي فلا يمكننا القول أن الضحك ظاهرة موحدة.

الضحك استعداد فطري عند الفرد لا يكتسبه بالتجربة فهو مرتبط بغرائز أخرى كالبكاء مثلاً، لهذا يعرفه أحد النفسانيين: "الضحك ظاهرة إنسانية تستشيرها دوافع معينة لا تختلف في التأثير بها عوامل السن أو الجنس، أو التعليم لأنها تكون جزءاً من طبيعة الإنسان الأولى، ... والأمثلة في هذا السياق كثيرة فالطفل الرضيع يبتسم عند مناغاته في الأسابيع الأولى من ولادته حيث يكون بعيداً عن كل المكتسبات الحياتية لا يتمتع إلا بالغرائز الأولى الفطرية، كذلك الابتسامة التي تشق طريقها وسط الدموع هي نوع من الضحك المذهب الفطري غير العمدى ولا المصطنع.

يفصل الفيلسوف برغسون بين الكوميديا والتراجيديا بكون الكوميديا تعتمد على الطابع الجماعي أما التراجيديا فهي ذات طابع فردي، فالإنسان يضحك مع الجماعة ولكنه يتألم وحده ويموت وحده، وفي بداية كتابه وضع برغسون شروطاً للضحك لابد أن تتوفر في شخصية المضحك والظروف المحيطة به ومنها الصلة الإنسانية فالإنسان لا يضحك على جماد أو حيوان إلا في حالة وجود شيء فيه يذكره بالإنسان، والصلة العقلانية للإنسان لا يضحك إلا على شخصية هزلية أو موقف مضحك إلا إذا تعاطف مع هذه الشخصية، والصلة الجماعية فالإنسان لا يضحك إلا وسط الجماعة ومن هنا نلاحظ زيادة الضحك في قاعة السينما على لقطة فيلم قد تضحكنا بنسبة أقل لو شاهدناها لوحدها.

ويرى برغسون أن الضحك يلعب دور المصلح الاجتماعي فحين يضحك المرء من شخص آخر أو من أفعاله فإنه يلفت النظر، إلى العيوب المسيئة للمجتمع والتي تصيبه بالخلل، ولهذا يضحك الناس على الشخص الأحدب أو النحيل، لقد حاول برغسون إظهار السمة النبيلة للضحك لكونه صفة جمعت الإنسان بالإنسانية ولعبت دور صوت الضمير الذي يخاطب الأرواح ويمتد، إلى الأبعاد التي لا نشعر بها، الضحك سلوك اجتماعي بواسطته ينبه المجتمع مشيراً، إلى الحس السليم، كل أولئك الذين ينحرفون عن النشاط الاجتماعي المستقيم والحقيقي والذين يسعون، إلى تقنيت التماسك الاجتماعي.

ليس من اليسر التطرق الى مفهوم الضحك، فهو ظاهرة معقدة في حد ذاتها كونه شكل من أشكال التعبير عن الفرح والسرور عند الجنس البشري، وقد يكون رد فعل نفسي نتيجة صدمة قوية أو قد يكون من دون أسباب واضحة أو مفهومة كما هو الحال بالنسبة للجنون.

إن أول سؤال يتبادر إلى ذهن كل دارس لموضوع "المضحك" هو المنظور الذي سيتناول به دراسته، فهو موضوع يتميز بالتعقيد لتعدد الحقول والمجالات التي غنيت به مثله مثل " الضحك "، كونهما موضوعان مقترنان بعضهما ببعض، ولعل أبسط نقطة في هذه دراسة المضحك هي مفهومه اللغوي لأنها نقطة لا نقاش فيها، غير أن المصطلح في اللغة العربية يعتبر إشكالا في حد ذاته لأنه مصطلح غير موحد، فما المقصود بالضحك؟ ما هي علاقته بالمضحك والإضحاك؟ وفيما تتمثل سيكولوجية الضحك وأهم دلالاته الفلسفية؟.

أهمية دراسة الموضوع: يعتبر الضحك هو أحد وسائل التعبير عن المرح والتسلية، وهو رد فعل طبيعي للإنسان البالغ على العديد من المواقف المضحكة، أو وسيلة للدفاع عن النفس ضد المواقف العفوية، ويمكن اعتباره من أكثر وسائل التواصل البشري فعالية، مع ذلك، "الضحك" ليس بالأمر السهل كما قد يبدو لأول وهلة، فقد حير الفلاسفة على مر التاريخ، بل لعل أجروا على القول أنه يكاد لا يقل صعوبة عن القضايا الكبرى التي تعاطت معها الفلسفة منذ القدم، ورغم اهتمام الفلاسفة به إلا أن ما قدموه في شأنه قد لا يبدو كافياً، وها هو الكاتب الروماني المشهور "كuintilian" الذي عاش في القرن الأول الميلادي يقول بأن: " سر الضحك ظل عصياً على الكشف، رغم المحاولات الكثيرة التي بذلت".

1. ماهية الضحك:

الضحك هو عبارة عن أسلوب سلوكي يستطيع الإنسان من خلاله التعبير عن طبيعة مشاعره، حيث أنه من المعتاد أن تكون هذه المشاعر إيجابية في حالة الضحك، أي أن الضحك يدل ويعكس حالة من السعادة والانبساط والفرح لدى الإنسان، ولكن ما المقصود بالضحك؟

1.1 الضحك لغوياً:

نجد في المعاجم العربية في باب الضاد وبالأخص مادة (ض.ح.ك) ما يلي: ضحك: الضحك: يضحك، ضحك، ضحكا، تضحك وتضاحك: فهو ضاحك.

ضحك وضحاك وضحكة: هو كثير الضحك، ضحكة (بالتسكين): يضحك منه، والضحكة: هو الرجل الضحك يعاب عليه، أما الأضحكة: ما يضحك به، وامرأة مضحاك: كثيرة الضحك، أما الضحاك فهو مدح على عكس الضحكة (بالكسرة) والضحكة (بالضمة) فهو الذم¹.

قال ابن الأعرابي: الضاحك من السحاب مثل العارض إلا أنه إذا برق قيل ضحك. والضحكة: كل سن من مقدم الأضراس مما يندر عند الضحك، والضحك: ظهور الثنايا من الفرح. والضحك: العجب وهو قريب مما تقدم. والضحك: الثغر الأبيض. والضحك: العسل، وقيل: الضحك الشهد: وقيل: الزبد، وقيل: الثلج. والضحك أيضا: طلع النخيل حين ينشق. والضحك: النور وضحكت المرأة: حاضت، وبه فسر بعضهم قول الله تعالى: "فضحكت فبشرناها بإسحاق"²؛ وقد فسر على معنى العجب أي عجبت من فرع إبراهيم.

وفي قاموس وبستر الضحك: «تعبير مسموع يرتبط بانفعال معين (خاصة البهجة والسخرية والارتباك... إلخ)».

ويحدث الضحك من خلال اندفاع الهواء على نحو مفاجئ من الرئتين فتنتج منه أصوات تمتد من القهقهة الانفجارية إلى الضحك نصف المكبوت أو المكثوم. وغالبا ما تصحب الضحك حركات خاصة بالفم أو عضلات الوجه وارتفاع ما في العينين، ويرتبط الضحك بالاكشاف التسلية ما أو متعة ما، مرتبطة بشيء معين أو شخص معين. كذلك عرف الضحك بأنه «فعل الضحك أو الصوت الناتج عنه والدال على المتعة أو اللهو أو التسلية». وكلمة الضحك كلمة عامة تشير إلى أصوات الزفير أو التنهدات.

وهناك أنواع من الضحك ومراتب له، منها الضحكة الخافتة **Chuckle** وهي ضحكة هادئة تنم من خلال نغمات صوتية منخفضة، والضحكة نصف المكبوتة **Titter** (والتي تتكون عادة من سلسلة من الأصوات المتقطعة العالية المقام)، والقهقهة **Giggle** والدمدمة **Guffaws** وهما مجموعة من أصوات الضحك العالية الخشنة غير المصقولة³.

2.1 الضحك اصطلاحا:

¹ أبي القاسم محمود الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، مصر، 1998. ص 266.

² القرآن الكريم، سورة هود، الآية 71.

³ شاكر عبد الحميد: الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد 289، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2003، ص 19.

لا يمكن حصر كل تعريفات الضحك، وإنما سنحاول أن نذكر أهم التعريفات لنستخلص في الأخير مواطن الاختلاف والاتفاق بغية الوصول إلى تعريف يكون جامعاً إن لم نقل جامعاً مانعاً، وقبل أن نحدد تعريفاً للضحك ينبغي أن نذكر بعض التعريفات التي قدمها الفلاسفة والعلماء حول براديغم الضحك منها على سبيل المثال: أرسطو الذي قال عنه: "نحن نضحك على من هم أقل منا وعلى القبحاء من الأشخاص، والفرح يأتي من الشعور بأننا طبقة أعلى منهم"⁴.

تعريف "هوبز Thomas Hobbes": ليست شهوة الضحك إلا اعتزازاً مفاجئاً، وفي هذا الشعور بالاعتزاز تكمن قضية الافتخار بالنسبة للآخر، إلى حد أننا حين نضحك منك (عليك) فإننا نسخر منك، ننتصر عليك ونحتقرك"⁵.

يقول مصطفى رجب أن الضحك: "هو ذلك الاستعداد الفطري لدى الإنسان لا يكتسبه بالتجربة، وهو انفعال إنساني خاص تميز به عن باقي الحيوانات، ويقوم على ثلاثة أركان هي: مؤثر أو باعث يستثيره، وحالة انفعالية مصاحبة، ووظيفة أو غاية يسعى لتحقيقها"⁶، تلك الحالة الانفعالية تكون ضمن حالة نفسانية (فردية وجماعية) تتوجب على الأفراد القيام بتفريغها، وهذا ما يعبر عنه هنري برغسون حين يقول: "بضرورة المشاركة في الضحك، لأنه ظاهرة معدية حيث يضحك الإنسان بسبب ضحك الآخرين وهو ما يسمى بظاهرة الإشعاع السيكوفيزيائي"⁷.

كما يرى محمد سعيدي أن عملية الضحك: "هي ثورة تفجيرية لكبت داخلي تسعى التركيبية الإنسانية الباطنية إلى دفعه لينفجر من الخارج، فهو تحرير لطاقة داخلية وانحباسها قد يؤثر سلباً على نفسية وسلوك الإنسان، فالضحك هو ترجمة لطبيعة الإحساس الإيجابي للإنسان إزاء ما يسمع وما يرى"⁸.

يقول برغسون في هذا الصدد: "إن الضحك ينشأ كما يتكون الزبد في البحر، أنه يبرز خارج الحياة الاجتماعية، المرفوضات السطحية، والضحك يرسم فوراً شكل هذه الانفعالات، إنه كالزبد في قعره الملح الأجاج، وهو مثله يتلأأ ويفرّق، وهذا هو الفرّح"⁹.

⁴ أرسطو طاليس: فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973، ص 254.

⁵ توماس هوبز: اللقيان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، تقديم: ديانا حبيب حرب، بشرى صعب، رضوان السيد، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت، 2011، ص 66.

⁶ مصطفى رجب: سيكلولوجية الضحك عند الجاحظ، مجلة الحرس الوطني، العدد 284، الكويت، 2006، ص 35.

⁷ محمد علي التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، المجلد الثاني، مكتبة لبنان، بيروت، 1996، ص 1110.

⁸ محمد سعيدي: الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1998، ص 84.

⁹ رياض قزحية: الفكاهة في الأدب الأندلسي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، 1998، ص 74.

وهذا ما يدفع بالإنسان إلى استغلال الضحك في التعبير عن مكبوتاته وجعله باب ليقود لعالم الضحك والفرح ويبعده عن عالمه الذي في الغالب يكون مليئاً بالتعب والمآسي.

ينبع الضحك - لدى بعض المفكرين - من الفرح والبهجة، ولدى بعضهم الآخر يكشف الضحك عن إدراكنا للتناقض، ولدى بعضهم الثالث يدل الضحك على العدوان، وقد وصل الأمر بالشاعر الفرنسي الشهير بودلير إلى أن يقول «الضحك شيطاني الطابع، ومن هذا المنطلق هو أيضاً إنساني على نحو عميق»، وهو - في رأيه - «علامة كذلك على العظمة وكذلك على التعاسة اللامحدودة»¹⁰.

وهناك أكثر من مائة نظرية حول الضحك، وكلها نظريات متداخلة، يعتمد بعضها على بعضها الآخر بدرجة واضحة، وتركز هذه النظريات في مجملها على عوامل معينة تربطها بالضحك، أو تربط الضحك بها، ومن هذه العوامل نجد مثلاً: الدهشة، التفوق، أو السيطرة، والتناقض في المعنى، والتنفيس عن الطاقة الزائدة، وغير ذلك من العوامل.

2. بين الضحك والإضحاك والمضحك:

عندما يراد الحديث عن ظاهرة الضحك يفرض الحديث عن الإضحاك نفسه بالضرورة، فالأول نتيجة حتمية للثاني على حد قول "جون إميلينا" (Jean Emilina) : « إن الفرق بين الضحك والإضحاك واضح، فالأول هو السبب والثاني هو النتيجة، ... فمن الصعب التفريق بينهما والحديث عن أحدهما دون التطرق إلى الآخر¹¹.

عادة ما يختلف الباحثون العرب في ترجمة مصطلح «comique» فمرة يترجم بالهزل و مرة أخرى بالمضحك و منهم من يفضل تعريب المصطلح فيستعمل مصطلح "كوميك" لتفادي أي تداخل بين المصطلحات، بحيث يوجد العديد منها التي تشتمل على مفهوم مشترك و هو إثارة الضحك، فهناك على سبيل المثال الدعابة و الفكاهة و الهزل و النكتة و المزاح و غيرها من المصطلحات التي تصب كلها حول مصطلح واحد و هو " المضحك" الذي يفضل العديد من الباحثين استعماله و هو الأصح من وجهة نظرنا لأنه كلمة مشتقة من فعل ضحك. أما المصدر

¹⁰ شاكر عبد الحميد: الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، مرجع سابق، ص 22.

¹¹ بن عمارة أمال فاطمة الزهراء: ترجمة الكوميديا في المونولوج في ضوء المنهج السيميائي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الترجمة، معهد الترجمة، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة، 2017، ص 35.

(الإضحاك) الذي لا يقابله مرادف محدد في اللغات الأجنبية، فيدل على العملية التي تؤدي إلى الضحك وتتموضع في شيء ما يوصف بأنه مضحك»¹².

أما عن المفهوم الاصطلاحي، فالأمر أكثر تعقيدا مما يبدو عليه، فقد يعتقد الكثير أن الموضوع مسلي و غير جدي لأنه مرتبط بالضحك و الإضحاك، غير أن البحث عن مفهومه مسألة قديمة لا تزال تشغل العديد من الباحثين، ف «تعريف المضحك حلم قديم للفلسفة و لعلم الجمال و النظرية الكوميديا وكذلك لعلم النفس منذ القرن الثامن عشر» على حد قول " هلموث بليسنر " (Helmuth Plessner)¹³.

ولعل طبيعة المضحك في حد ذاتها تجعل منه موضوعا صعبا للدراسة و هذا ما يؤكد عليه " جون مارك ديفاي " (Jean-Marc Defays) حيث يقول: « يعتبر المضحك ظاهرة ليس من السهل تحديدها، كونه متقلب بحيث تختلف مظاهره ودرجاته وأساليبه ومواضيعه لدرجة يصبح من الصعب التعرف عليه»¹⁴.

وعادة ما نلاحظ أن المضحك متقلب ومتنوع المظاهر والأشكال مما يصعب على الدارس تحديده كي يتسنى له تحليله ودراسته دراسة معمقة ولسنا بصدد ذكر مجموعة من التعاريف والمفاهيم للمضحك لأنها كثيرة ومتنوعة بتنوع البحوث والحقول التي عنت بالموضوع، سنكتفي بذكر قائمة من المفاهيم التي انتقينا بعضها منها:

- ❏ المضحك هو أي فعل أو عمل أو كلام أو فكر يثير الضحك.
- ❏ المضحك هو ما يضحك بصورة اصطناعية من خلال لعب وتقليد وتمثيل شخص ما.
- ❏ المضحك هو لعبة فكرية هدفها التسلية واللهو وإثارة الضحك.
- ❏ المضحك هو دغدغة فكرية بحيث تؤثر على الضاحك الطريقة نفسها التي تؤثر بها الدغدغة الفيزيولوجية.
- ❏ المضحك هو مؤسسة لهدم القيم الإنسانية من خلال اللعب.

¹² ماري إلياس، قصاب حنان: المعجم المسرحي: مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثانية، 2006، ص 46.

¹³ Plessner Helmuth : **Le rire et le pleurer : une étude des limites du comportement humain**, traduction : Mannoni Olivier, France, Les Editions de la MSH, 1995, P 97.

¹⁴ Jean-Marc Defays : **Les problèmes de l'analyse du discours comique in Approches du discours comique**, Belgique, éditions Mardaga, 1999, p 13.

٢٥ المضحك هو الفن الذي يحاكي الاختلالات مثل العيوب والتجاوزات وتناقضات السلوك البشري فيعالجها مبدع ذلك الفن بصورة خفيفة ومسلية ومرحة ومثيرة للضحك¹⁵. وحوصلة لكل هذه المفاهيم، يمكننا أن نستنتج بأن المضحك تصلح للاختلالات الموجودة في المجتمع من خلال محاكاة هذه الأخيرة بصورة مسلية ومثيرة للضحك من جهة وذكية من جهة أخرى بحث تثير الاهتمام وإعادة النظر في تلك الاختلالات.

3. الضحك... كظاهرة إنسانية:

يعد الفيلسوف هنري برغسون أول من حاول تفسير ظاهرة الضحك علمياً، ويشرح دلالاته وتعريفه وأنواعه ففي بحثه " دلالة المضحك " يؤكد " برغسون " أن الضحك من أهم الأسرار النفسية التي يمكن الإحاطة بها وتحليلها، كما يؤكد في مفارقة لما يصوره كثيرون: " أن الضحك عملية عقلية وليست وجدانية، وأنه يتطلب إعمالاً للعقل، ويعتبر الضحك مسألة اجتماعية تخضع للخصوصية الثقافية لكل مجتمع"، كما يحدد لنا الشروط المحيطة بعملية الضحك والأشكال المهمة والأساسية لهذه العملية والتي تتمثل في ثلاثة أشكال أساسية:

في البداية يرفض برغسون أن يحصر المضحك في تعريف محدد، ويعتبره شيئاً حياً قبل كل شيء، ومهما يكن هذا الشيء خفيف الوزن فهو يستحق الاحترام الذي تستحقه الحياة، ولهذا فهو ينظر إليه ككائن حي يكبر ويزدهر، فيتدرج من صورة إلى أخرى تدرجاً لطيفاً لا يكاد يرى لأنه في الأساس عملية داخلية نتعرف عليها من طول معاشرتنا لها وتعودنا إياها، وفي الوقت نفسه يرفض أن يوصف الضحك باللهو والعبث إذ يرى أن له معقوليته الخاصة حتى في أبعد فلتاته ... فهو في جنونه ذو منهج، وهو ما لم يستحضر في الحلم رؤى يقبلها ويفهمها مجتمع برمته.

ويؤكد برغسون ثلاث نقاط مهمة تحيط بعملية الضحك أولها: أنه لا مضحك إلا في ما هو إنساني، فالمنظر قد يكون جميلاً لطيفاً رائعاً، أو يكون تافهاً أو قبيحاً ولكنه لا يكون مضحكاً أبداً، وإذا ضحكنا من حيوان فلأننا لقينا عنده وضعاً أو تعبيراً إنسانياً.

والنقطة الثانية هي عدم التأثر الذي يصاحب الضحك عادة حيث لا يمكن للمضحك أن يحدث هزته وتأثيره إلا إذا أسقط على صفحة نفس هادئة تمام الهدوء منبسطة كل الانبساط، فاللامبالاة هي الوسط المناسب له بينما الانفعال هو أشد أعدائه، ولذلك نجد النفوس المتأثرة دائماً تهتز للحوادث بشكل عاطفي فقط، ولا تعرف الضحك أو تفهمه. أما النقطة الثالثة فهي الاتصال أي

¹⁵ Dimitri Karadimos : l'art du comique, éditions Publibook France, 2009, P 184-185.

اتصال العقل بعقول أخرى فنحن لا نتذوق المضحك في حالة الشعور بالعزلة لأن الضحك بحاجة إلى صدى لأن الصدى هو الذي ينمي الشعور بالضحك تدريجياً¹⁶.

عندما انطلق برغسون هنري في عرضه لظاهرة الضحك، انطلق من ملاحظات ثلاث، اعتبرها أساسية وضرورية: "وهي ملاحظات لا تتصل بالضحك ذاته بقدر ما تتصل بالموضع أو الإطار الذي يجب أن نبث عنه فيه، هذه الملاحظات تحيله إلى ثلاث صفات تضررها صفات الإنسان السوي الواقعي والاجتماعي، فالضحك هو إنساني وعقلي واجتماعي¹⁷.

4. أصناف الضحك:

قبل الحديث عن أنواع المضحك، نستحضر ما قاله "عباس محمود العقاد" عن أنواع الضحك أو بالأحرى عن اختلاف بواعث الضحك، حيث يقول: «هناك ضحك السرور والرضى وهناك ضحك السخرية والازدراء وهناك ضحك المزاج والطرب وهناك ضحك العجب والإعجاب وهناك ضحك العطف والمودة وهناك ضحك الشماتة والعداوة وهناك ضحك المفاجأة والدهشة وهناك ضحك المقرور وضحك المشنج وضحك السذاجة وضحك البلاهة، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار. بل وكان لكل مضحكة من هذه الضحكات ألوان لا تتشابه في جميع الألوان»¹⁸.

لقد حاول الكثير من الأدباء والمفكرين والفلاسفة حصر الضحك في أنواع وأصناف، على غرار برغسون وفرويد والانجليزي جون ماكرون معتبرين أن لكل شخص طريقته وأسلوبه في الضحك، وباعتبار أن الضحك حركة داخلية وخارجية، لها سماتها المعروفة بإخراج صوت خاص من جهة، وباهتزاز الجسم هزات تختلف وقوة الضحك من جهة، وطريقة الأشخاص وعاداتهم من جهة أخرى، فإن ذلك يمكن أن يدل على شخصية صاحبها: فالضحك الهستيري، والضحك المحصور، والضحك المتعجب، والضحك المخلص، والضحك المتكلف، وغيرها مرتبطة بحالات وانفعالات نفسية تدل على نفسها من تلقاء نفسها.

ولكن بعيداً عن ذلك نجد تصنيف آخر للضحك يذهب إلى مقارنة بين "الضحك" و"التبسم" و"القهقهة" "حيث أن القهقهة هي بروز نواجز الضاحك مع الصوت، والضحك بلا صوت، والتبسم

¹⁶ شاكر عبد الحميد: الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، مرجع سابق، ص 112.

¹⁷ هنري برغسون: الضحك، ترجمة: سامي الدروبي، عبد الله عبد الدائم، دار اليقظة العربية، الطبعة الثانية، دمشق، 1964، ص 6-7.

¹⁸ محمود عباس العقاد: جحا الضاحك المضحك، دار الهلال، مصر، 2007، ص 07.

دون الضحك، نظير ذلك النوم والنعاس والسنة، وقد قيل الضحك هو انبساط الوجه بحيث يظهر الضاحك الأسنان، فإن كان بلا صوت فتبسم، وإن كان بصوت يسمع من بعيد فقهقهة وإلا فضحك وحسب، وقيل أيضاً: الضحك والقهقهة مترادفان، وهو أن يقول الضاحك: قهقهة! إلا أن الأكثرين اتفقوا على أن الضحك هو ما يكون مسموعاً أي للضاحك فقط، وما لا يكون مسموعاً له ولغيره يسمى تبسماً¹⁹.

وبالإضافة إلى ذلك نجد من يرى أن: "التبسم يأتي في أول مراتب الضحك، ثم الإهلاس، ثم الافتقار والإنكلال وهما يصنفان ضمن الضحك الحسن، أو ما يسمى بالضحك المعتدل، ثم الكتكتة وهي أشد منهما، ثم القهقهة والقرقرة والكركرة وهذه جميعها يكون الضاحك فيها يخرج أصوات، ثم الاستغراب، ثم الطخطة وهي أن يصل بالضاحك أن يقول: طيخ طيخ، ثم الإزهاق والزهقة وهي أن يذهب الضحك بالضاحك كل مذهب".

يبقى موضوع الضحك وأنماط الشخصية: المنفتح، الانطوائي وغيرها من الأنماط الضاحك المتحكم الوحيد بالإضافة إلى موضوع الضحك في كيفية وأسلوب التعبير عن الضحك، فلا شك أن سماع نكتة أو الحديث عن موقف أو شخصية ساخرة من طرف مضحك بارع يتميز بكل ميزات الإلقاء، والتعبير له دور كبير في رد فعل المستمع أو المستمتع بالحديث²⁰.

رغم هذه الفروق بين أصناف الضحك ومستوياته ودرجته وتعددتها، إلا أنه يمكن القول بأن الضحك يصنف إجمالاً إلى ثلاثة تصنيفات كبرى هي:

★ **الابتسام:** ويدخل فيه المتكلف.

★ **الضحك المعتدل:** الضحك الحسن، العادي.

★ **الضحك المفرط:** هو الضحك الهستيري الغير متحكم فيه.

5. وظائف الضحك وقيمه:

إن الضحك والدعابة وتأثيرهما النفسي والفسولوجي على جسد الإنسان يدعى بعلم "جلوتولوجي" **Gelotology**، ولقد أكدت بعض الدراسات أن الضحك لا يقتصر على الإنسان فقط، لكن هناك مفارقات بين ضحك الإنسان والحيوان وحتى أن هناك اختلاف في ضحك الجنس

¹⁹ محمد علي التهانوي: كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، مرجع سابق، ص 1110.

²⁰ عبد الحميد خطاب: الضحك بين الدلالة السيكلوجية والدلالة الاستيطيقية: دراسة تحليلية في ماهية الضحك الهزلي فنيا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص 16.

البشري في حد ذاته فمثلا بين ضحك المرأة والرجل فالمرأة تصدر أصوات للضحك عكس التي يصدرها الرجل الذي تكون ضحكاته غليظة غير منتظمة.

وقد تظهر أهمية الضحك لدى الإنسان في استخدام الأطباء والمعالجين النفسيين والمختصين في مجال الصحة العقلية للضحك كنوع من أنواع العلاج والشفاء من بعض الاضطرابات الجسدية والعقلية والروحية.

والعلاج بالضحك يحقق صحة المقولة القديمة التي تقر بأن "الضحك هو العلاج الأفضل" أو كما قال "فولتير **voltaire** الطبيعة هي التي تعالج المر ، بينما فن الطب هو الذي يداوم على بقاء الإنسان في حالة سلام نفسي"²¹.

يلخص علماء النفس وظائف الضحك في الحياة في خمس وظائف رئيسية:

أ. **التخفيف من وطأة القيود الاجتماعية:** فالفكاهة صمام أمان للتعبير عن الأفكار المرتبطة بجوانب ترتبط أكثر من غيرها بالقيود الاجتماعية، وتتعلق هذه الجوانب بشكل خاص بالسلوكيات الغريزية والعدوانية والجنسية، وهي السلوكيات التي تنظمها المجتمعات على نحو أخلاقي وديني واجتماعي، وتحاول توفير السبل المناسبة للتعبير عنها، فالإخماد الكامل لها هو غير الطبيعي. فمشاهدة الملاكمة أو المشاركة في أي لعبة رياضية قد توفر تنفيسا عن المشاعر العدوانية، ويوفر الزواج تنفيسا عن الطاقات الغريزية الجنسية، وتلعب الفكاهة والضحك والنكتة دورا في هذا السلوك التنفيسي أيضا فهي تعمل بشكل خاص على تصريف بعض الطاقات التي لو تراكمت لأصبحت ذات فاعلية سلبية في المجتمعات المختلفة.

ب. **النقد الاجتماعي:** من خلال السخرية والنكتة والفكاهة تنقد بعض المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وبعض الشخصيات والسلوكيات، كذلك بهدف خفض التوتر، أو تصحيح بعض الأوضاع الخاطئة، ومادام الإحباط هو أحد أهم مصادر العدوان، فإن هؤلاء الذين يحبطون الأهداف ويمنعون تحقيقها قد يكونون هم الموضوع الذي توجه إليه السخرية أو الفكاهة (رجال السياسة، القضاة المعلمون، موظفو الحكومة، الآباء..).

ت. **ترسيخ عضوية الفرد في الجماعة:** الابتسامة هي أول أشكال السلوك الضاحك، وهي أول دليل إيجابي على رغبة الطفل في التواصل مع والديه الوجود معهم، ويرتبط الابتسام والضحك بالاستمتاع مع الآخرين وبوجودهم، وقد يضحك الناس من هؤلاء الذين يخرجون على معايير

²¹ ساميحة أزيوش: فلسفة الضحك وسيكولوجية الإنسان المتفتح، مجلة متون، جامعة مولاي الطاهر سعيدة، العدد الرابع، ديسمبر 2017، ص 178-179 بتصرف.

الجماعة وقيمها رغبة في أن يعيدوهم إلى نطاق هذه المعايير والقيم مرة أخرى كما أشار برغسون، فالضحك والتفكه سلوك زاهر بالقيم والمعايير والسلوكيات الاجتماعية.

ث. **أسلوب لمواجهة الخوف والقلق:** فالضحك يجعلنا نعلو على المواقف المربكة، وعلى المخاوف المقلقة، وعلى الصراعات المهلكة. الضحك يعني أننا نسيطر على المواقف، ونعلو عليها، ونتجاوزها، ولعل هذا ما يفسر كثرة النكات والتعليقات المرححة التي تدور حول المرض، الكوارث، والموت، ومنها ذلك التعليق الشهير الذي قاله الممثل الكوميدي الأمريكي وودي آلان «الأمر لا يتعلق بأنني أخاف مجيء الموت، كل ما في الأمر أنني أحاول ألا أكون موجوداً هنا عندما يحضره».

ج. **اللعب العقلي:** فقد تكون الفكاهة نوعاً من اللعب العقلي أو المباراة المعرفية، فالفكاهة تمنحنا نوعاً من التحرر المؤقت من سيطرة القوالب النمطية والطرائق المنطقية الجامدة من التفكير، وتسمح لنا بالهروب المؤقت من قيود الواقع وحصاراته، والتجوال بحرية لبرهة أو برهات في حقائق الأصالة والخيال والإبداع، وكذلك خلو البال، والشعور بالمباغطة والدهشة والمفاجأة²².

6. الضحك والتنفيس:

دور الضحك في التفريغ عن التوتر والضغط الذي يلزم حياة البشر، فبدلاً من الاهتمام بتحديد "المضحك"، اهتم أصحاب هذه النظرية بمناقشة الجانب الوظيفي والإجرائي للضحك، وأبرز رواد هذه النظرية هيربرت سبنسر وسيجموند فرويد، وقصارى قول القائلين بها هو أن دواعي الضحك تكمن في الترويح عن طاقة فائضة يختزنها الجسم أو النفس، يقول سبنسر بالأول، أما فرويد فيقول بالثانية.

يذهب فرويد إلى أن ما نفرغه من طاقة في الضحك لا يمكن مقارنة بما يبذل من نصب لإبقاء المكبوتات مدحورة في العقل الباطن لكي نبقىها في الخفاء، حيث أننا نضحك لنعبر عن المكبوتات النفسية بصورة يسمح لها بأن تمرر عن طريق المتعة في الفكاهة، فبينما الضحك هو تنفيس عن هذه المكبوتات فإنه هو في ذات الوقت "تكنيك" معين، لتوفير الطاقة النفسية²³.

7. نظريات الضحك:

²² شاكر عبد الحميد: الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، مرجع سابق، ص 39-40.

²³ عبد الحميد خطاب: الضحك بين الدلالة السيكولوجية والدلالة الاستيطيقية: دراسة تحليلية في ماهية الضحك الهزلي فنياً، مرجع سابق، ص 73.

اختلف العلماء حول النظريات المفسرة لظاهرة الضحك، ولم يتوصلوا إلى تصنيف موحد، وربما يعود ذلك إلى توسع بعض الآراء وتشعبها بحيث يتعذر إدراجها تحت مسمى معين.

اجتهد الباحث "زهير كاظم" في تقسيم الآراء الواردة في الضحك إلى ستة نظريات، وهي:

◀ **نظرية التفوق الذاتي:** ومن فلاسفتها "هوبز" Thomas Hobbes الذي يرى أن الضحك مظهر للسرور، وأن إشاعة هذا الشعور في النفس مرده إلى إحساس الفرد الفجائي بتفوقه على غيره.

◀ **نظرية الطاقة الفائضة:** يرى "سبنسر" Herbert Spencer صاحب هذه النظرية أن الضحك ما هو إلا مظهر لطاقة حيوية فائضة، فنحن نضحك لأننا لسنا في حاجة إلى الاستعداد واليقظة في موقف من المواقف، وهي حالة نفسية تتطلب حيوية فائضة لدفع ضرر ممكن الحصول، أو الحصول على منفعة.

◀ **النظرية الدفاعية:** وتعود هذه النظرية إلى العالم الهندي "جوبا لاسوامي"، الذي يرى أن الضحك مظهر لبعض الغرائز الدفاعية عند الإنسان، التي اضمحلت بسبب تحضر وتطور المجتمع، فتراجعت حاجة الإنسان إلى استخدامها في صورتها الأصلية، كالقتال والهرب.

◀ **النظرية التطورية:** لقد حدد "هايبورث" وظيفة الضحك بأنها الإعلان عن أن الخطر الذي كان متوقعا حدوثه قد زال، وهذه النظرية مستمدة من نظرية داروين "Darwin Charles" في التطور وهي تتفق مع النظرية السابقة من حيث تطور بعض الغرائز الدفاعية لدى الإنسان واضمحلال غرائز أخرى نتيجة التقدم المدينة والحضارة.

◀ **النظرية الانعطافية:** وهي من أغنى النظريات في تفسير ظاهرة الضحك حيث يرى العالم الأمريكي "مكدوجل" William McDougall أن الضحك محاولة المشاركة الغير في متاعبهم إذا كانت هذه المتاعب ليست ذا خطر جدي على الإنسان، وبذلك أصبحت مصائب الغير التافهة مصدرا لاستمرار الضحك، وأن الطبيعة هيأت للإنسان وسيلة للتخلص من الضيق، وهذه الوسيلة هي الضحك.

◀ **النظرية الاجتماعية:** ويرى العالم الفرنسي "برغسون" أن وظيفة الضحك اجتماعية بحتة، حيث هو سلاح بيد المجتمع، ووسيلة فعالة لحماية تقاليده وأعرافه ونظمه من الذين يحاولون التمرد والخروج عما هو متعارف عليه، ومألوف سواء في الأفعال أو الأقوال²⁴.

²⁴ زهير كاظم: في الضحك والكوميديا، دار الكتب والوثائق، بغداد، 2010، ص 61-62.

8. آليات الضحك:

يحفز الفلاسفة الناس على تهديم المسلمات من خلال طرح التساؤلات حولها والشك في الأشياء العادية والمألوفة، يطلب الفيلسوف من الناس أن يكونوا متشككين في كل مسلماتهم: من حقيقة الأشياء في العالم، إلى التساؤل فيما لو كانت عائلتك بشرا أو روبوتات، ومن هذه الزاوية يظهر أن للفيلسوف والكوميدي أواصر قرابة فيما بينهما، فالكوميدي أيضا يطلب منك أن ترى العالم من زاوية معاكسة: عالم تتحدث فيه الحيوانات فيما بينها وتصبح الأشياء الجامدة قادرة على الكلام والتعبير، ولعل من أشهر الآليات التبت تستخدم في عملية الضحك نجد ما يلي:

1.8 مضحك الأشكال والحركات: يضع "برغسون" قانونا واضحا مفاده أن: "كل تشوه قابل لأن

يقلده شخص سليم يمكن أن يصبح مضحكا".

لا يرى "برغسون" بأن كل التشوهات يمكن أن تكون مصدرا للضحك، بل يقتصر الأمر على تلك التشوهات التي أصبحت عادة بفعل التصلب، فكأن شيئا من الحركات المألوفة قد تجمد وتصلب، فهناك وجوه باكية على الدوام، وأخرى ضاحكة أو صفراء أو منتفخة، وتلك الوجوه هي الأكثر إضحاكا، فالذي يضحكنا من هذه الوضعيات هو آلية التصلب ويزيد ضحكنا أكثر حين تربط هذا التشوه بذهول الشخص، وعلى هذا يفسر فن الكاريكاتير باعتباره فنا يقوم على إدراك هذا التشوه الذي يغفل عنه الآخرون، ومن ثم يقوم الرسام بتضخيمه وجعله واضحا لكل الناس²⁵.

قانون آخر يضعه برغسون، "أوضاع الجسم وإشارته وحركاته تكون مضحكة على قدر ما يذكرنا هذا الجسم بأنه مجرد آلة"، ثم يتابع فكرة الآلية التي لبستها الحياة في ثلاث اتجاهات هي: ★ صورة الآلي والحي متداخلان أحدهما في الآخر، فإذا ما حصل تباين بين الزبي الذي هو مادة والإنسان الحي الذي يرتديه، حين ذلك يحصل نوع من المفاجأة والتناقض فيثار الضحك. ★ كل حادث يلفت انتباهنا إلى الجانب المادي من الشخص حين نكون بصدد الجانب الروحي فهو مضحك.

★ نحن نضحك من أي شخص يوحي لنا بأنه شيء، إن الجسم إذا تجرد من روحيته وحاول التشبه بشيء ما من خلال حركاته المتكررة، كما يفعل المهرجون في السيرك حينما يتمثلون مع الكرات والديكورات، حين ذلك يثار الضحك فينا²⁶.

²⁵ نفس المرجع السابق، ص 80.

²⁶ زهير كاظم: في الضحك والكوميديا، مرجع سابق، ص 82.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الضحك الذي مصدره المظاهر المادية (الجسمانية) للشخصيات هو أخط ألوان الضحك، لأن الأخلاق تنهانا عن الضحك من عاهات الآخرين الطبيعية.

2.8 مضحك الظروف والمواقف: يعرف "برغسون" المضحك "بأنه كل ترتيب الأفعال والأحداث يوحي لنا وهما بأن الحياة قد دبت ضمن الترتيب الميكانيكي"²⁷.

ويقترح علينا "برغسون" ثلاث ميكانزمات لصناعة الضحك من خلال الظروف، وهي: التكرار، القلب، تداخل سلسلتين.

❧ يرى أن تكرار مجموعة من الظروف كما هي، مرات عديدة، بحيث تسيطر على مجرى الحياة المتغيرة تكون مضحكة. من ذلك أني التقيت بصديق لم أكن قد رأيته منذ مدة، فالأمر لا يدعو للضحك، ولكن لو صادف أن التقيته في اليوم الواحد مرات متعددة، فإننا نضحك حتما من المصادفة.

❧ القلب أو عكس الأدوار، فإذا ما جعلنا المتهم يتحدث مع القاضي عن الأخلاق، أو شخصية تنسج المكائد فما تلبث أن تقع فيها، حكايات الخادع المخدوع، كل ذلك يؤدي إلى الإضحاك.

❧ تداخل سلسلتين أو الالتباس، فهو يرى أن كل وضع يمكن أن يكون مضحكا إذا انتسب إلى سلسلتين من الحوادث مستقلتين تماما، وأمكن تفسيره في آن واحد بمعنيين مختلفين، فإذا ما تداخلت سلسلة من الحوادث القديمة مع سلسلة من الحوادث الحديثة في خيالنا، أو إدخال سلسلة من الحوادث الخيالية مع سلسلة من الحوادث الواقعية²⁸.

مثال: حديث يدور بين شخصين، الأول يريد أن يطلب يد ابنة الثاني، والثاني يريد أن يبيع سيارته للأول، دون علم أي منها يقصد الآخر، فيتحدثان بنفس اللغة عن أمرين مختلفين، العمر، والجودة، قدرة التحمل، واللون، الأول يقصد المرأة، والثاني يجيب حول السيارة، هذا اللبس يدفع إلى الضحك.

يقول أَلارديس نيكول: "الراجح أن هذه الآلية في إثارة الضحك لم ينتفع بها تمام الانتفاع في الملهاة كما انتفع بها في القصة، ولعل السبب في هذا هو صعوبة إظهار السلسلتين في الملهاة في صورتين محكمتين متساويتين، بمثل ما يمكن إظهارهما في القصة"²⁹.

²⁷ هنري برغسون: الضحك، مرجع سابق، ص 27.

²⁸ نفس المرجع السابق، ص 63 بتصرف.

²⁹ أَلارديس نيكول: علم المسرحية، ترجمة: دريني خشبة، دار سعاد الصباح، الطبعة الثانية، الكويت، 1992، ص 312.

3.8 مضحك الكلمات: يرى "برغسون" أن مضحك الكلمات يجب أن يقابل مضحك المواقف والأفعال، إن تكرار الكلمات والعبارات على نحو آلي يخلق نوعاً من اللامعقولية المضحكة، كما أن القلب اللغوي من الفخامة الأدبية إلى اللغة الشعبية الدارجة قد يثير شيئاً من الهزل، والمبالغة المضحكة، كأن نتحدث عن أشياء صغيرة كما لو كانت كبيرة والعكس، وهما أسلوبان جيدان لإثارة الضحك³⁰.

وهو يميز بين نوعين من فكاهة الكلام (Comique de Mots)، فهناك فكاهة تعير عنها اللغة، وهناك فكاهة تخلقها اللغة، فالأولى يمكن عند اللزوم أن تترجم من لغة إلى أخرى وقد تحافظ على قدرتها على الإضحاك، لكن الثانية غير قابلة للترجمة عموماً، لأن الكلام في حد ذاته هو من يحدث الفكاهة، فالكلمة تتمتع بقدرة فكاهية مستقلة³¹.

4.8 مضحك الطباع والسلوكيات: يرى "برغسون" أنه ليس من الضروري أن يكون الطبع طيباً أو خبيثاً لكي يثير الضحك، وإنما يمكن أن نضحك إذا كان الطبع غير اجتماعي، ويعود سبب ذلك إلى اكتسابه شيئاً من الصلابة التي تمنعنا من التأثر به عاطفياً، فالمضحك هو أن يصدر عن شخصية ما بدون علم منها حركة لا إرادية أو كلمة غير واعية، بمعنى أن هناك ذهول لدى الفرد أنتج هذا الطبع، وكلما تعمق هذا الذهول زاد الإغراق في الضحك³².

وخلص إلى القول بأن كل طبع يضحك، إذا كنا نعني به ما هو جاهز في شخصيتنا أي ما يشبه الآلة تعبئها فتشتعل من نفسها، وتصوير الطباع يعني أن تعرض المتشابهات من الأحداث والمواقف التي تتقارب في بنيتها مع ما حصل لنا أو لغيرنا.

9. سيكولوجية الضحك وفلسفته:

الضحك ظاهرة عالمية، وهي جزء من السلوك الإنساني إذ يقول الفيلسوف الفرنسي "هنري برغسون Bergson Henri" "لا شيء هزلي خارج ما هو بشري" وهو خاصية يشترك فيها الناس من نفس الثقافة ومن نفس المجتمع، ومن هنا تأتي المقاربة السوسيولوجية لتؤكد عن العلاقة القائمة بين الضحك والآخر في بعده الجمعي.

³⁰ زهير كاظم: في الضحك والكوميديا، مرجع سابق، ص 83.

³¹ هنري برغسون: الضحك، مرجع سابق، ص 71.

³² زهير كاظم: في الضحك والكوميديا، مرجع سابق، ص 83.

فيقدر ما يساهم الضحك في نشر ثقافة النباهة وأخلاقيات التفكير الهادف، بقدر ما يساهم في نشر ثقافة الانحطاط التي تقدس ثقافة الغير على حساب ذاته، وهذا ما عبر عنه "هنري برغسون" في كتابه "الضحك" بحيث اعتبره خاصية تتعلق بالإنسان ويشترك فيها الناس من نفس الثقافة ومن نفس المجتمع.

إن الفكاكة والضحك أمر مهم في حياة الإنسان، إنما تنزع إليه النفس الإنسانية، ولذلك يعرف البعض الإنسان بأنه «حيوان ضاحك» كما يتميز الإنسان عن الحيوانات الأخرى بنطقه، كذلك يمتاز عنها بابتساماته وفكاهته.

لقد شغل موضوع الضحك اهتمام الكثير من الكتاب والأدباء والفلاسفة وعلماء الفيزيولوجيا والأطباء وعلماء النفس عامة، والمشتغلين في حقل الكوميديا والفكاكة خاصة، وذلك منذ البدايات الأولى للحياة الاجتماعية التي تضبط العلاقات بين الناس وفق قواعد متعارف عليها، وللضحك أبعاد معرفية وأنطولوجيا واجتماعية تتفاوت قيمته من مجتمع لآخر ومن فئة اجتماعية إلى أخرى ومن جنس إلى آخر.

فقد جذب موضوع الضحك اهتمام أرسطو، الغزالي، برغسون....، وغيرهم الكثير لما يرون له من أهمية قصوى نفسية واجتماعية له في يوميات الأفراد، ولكن رغم ذلك يبقى الكثير منهم "يعتقد أن الخطاب الجاد هو الخطاب الوحيد والأمثل المفسر والمجسد للواقع الاجتماعي"³³.

لكن هل يمكن للأفراد أن يتعايشوا مع الأحداث والظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التي تخيم على حياتهم ويومياتهم إلا بالطريقة الجادة وبالحلول الصارمة، أم يمكن استغلال هذه التحولات والتراكمات وإدخال عليها خطابا لا يلتزم فقط بالجدية هادف ويكون مثيرا للضحك في آن واحد.

في هذا السياق، يشير أسطوريا إلى "أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن العالم خلق من الضحك، فحين أراد الإله الأكبر أن يخلق العالم أطلق ضحكة قوية فكانت أرجاء العالم السبعة، ثم أطلق ضحكة أخرى فكان النور، وأطلق ضحكة ثالثة فكان الماء، وهكذا حتى ثم خلق الروح من الضحكة السابعة".

إن هذا الاعتقاد يجعل من الضحك عنصرا أساسيا وهاما في الحياة، بل وحتى يكون بمثابة عاملا قويا في الربط بين الناس، ويضيف إلى ذلك الدكتور أحمد أبو زيد في تحليل وقع مثل هذا الاعتقاد

³³ عبد الرزاق أمقران: في سوسيولوجيا المجتمع: دراسات في علم الاجتماع، المكتبة العصرية، مصر، 2009، ص 04.

فيقول: "من أجل ذلك كانت روح الفكاهة إحدى الخصائص الشخصية المصرية حيث عرف المصريون بحب الفكاهة والميل إلى الضحك لكل شيء ومن كل شيء، فلا يزالون يضحكون رغم كل ما يمر بهم من ويلات ومتاعب وأزمات، ولا يزالون ينظرون بعين الدعابة التي لا تخلو من سخرية إلى العالم من حولهم، فهم يسخرون من أحداث الحياة ومن أعدائهم، ومن حكامهم، بل ومن أنفسهم على السواء"³⁴.

وبالتالي لا يمكن القول أن المصريين فقط هم الذين يتمتعون بروح الفكاهة وإنما كل المجتمعات وكل الشعوب تتخذ عقائد وأساطير مماثلة لخلق أجواء الضحك والفرح، هذا ما ما نجده لدى مؤلفي كتاب الفكاهة وآليات النقد الاجتماعي عندما يقولون أنه "لا توجد مجتمعات إنسانية تخلو من الفكاهة والضحك، مما يؤكد أن الضحك والفكاهة مثلها مثل أي رسالة أو ظاهرة اجتماعية، توفى ببعض الوظائف الخاصة بالأفراد وتستخدم أساليب معينة لها محتواها الخاص ولها دلالاتها"، رغم أن العديد من الباحثين وعلماء النفس والاجتماع على حد تعبير الدكتور علي مقلد: "يرون أن الضحك هو مطلب فردي واجتماعي، خصوصا في الأزمات المتتالية"³⁵.

اعتبره الفيلسوف الفرنسي "رينيه ديكارت René Descartes" انفعالا، وتوصل إلى هذه النتيجة بعد تحليله العميق لأوجه الصلة الموجودة بين النفس والجسد، وهذا في كتابه "انفعالات النفس les passions de l'âme" الذي نشر سنة 1649، حيث يقول ديكارت عن الضحك بأنه "كل ما يستطيع أن ينفخ الرئة بشكل مفاجئ"، وقد تم ربطه بالفرح المعبر عن المشاعر "الضحك أحد الإشارات الأساسية للفرح"³⁶.

لكن الفيلسوف "هربرت سبنسر Herbert Spencer" نفى أن يكون الضحك مجرد فعل فيزيولوجي لا يعكس إلا البعد الحيواني في الإنسان، ولا يمكن اعتباره مجرد فعل سيكولوجي بحت كما تفرقه المقاربة السيكلوجية باعتبارها أن الضحك ما هو إلا تعبير مباشر أو رمزي عن الغبطة والرضا والسرور والارتياح والانشرح.

كما اعتبره "سيغموند فرويد Sigmund Freud" في كتابه "النكتة وعلاقتها باللاشعور بكونه "يلعب دورا أساسيا في التخلص من رقابة الأنا الأعلى، ووسيلة أشبه ما تكون بالأحلام التي

³⁴ مجموعة من المؤلفين: الفكاهة والضحك، مجلة عالم الفكر، المجلد 02، العدد 12، الكويت، 1982، ص ص 03-04.

³⁵ عبد الحميد شاكر وآخرون: الفكاهة وآليات النقد الاجتماعي، مطبوعات مركز البحوث الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004، ص 12.

³⁶ رينيه ديكارت: انفعالات النفس، ترجمة: جورج زيناتي، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1993، ص 76.

يهرب فيها الإنسان من وعي الصحو ومنطقة اليقظة"، فالضحك عند "فرويد" مختزل في أحلام اليقظة، وهي آليات لاشعورية تسعى إلى تخفيف حدة الإحباط الذي تحس به الذات تجاه الواقع، إذ يعتقد فرويد أن الفكاهة ترجعنا إلى طفولتنا وحريتنا قبل وعينا بسلطة الرقيب أي سلطة المجتمع وما يغرسه فينا وهو الأنا الأعلى³⁷.

حيث الذي يقول: " ينبعث الضحك في حالة إطلاق طاقة نفسية قد تم تعبئتها مسبقا بحيث لم نعد بحاجة إليها فيمكن إطلاقها بكل حرية"³⁸، وبالتالي يرى أن الضحك يمثل عاملا أساسيا للشخصية السوية، لأنه يساعد الشخص على تفريغ كل هذه الشحنات الزائدة من الطاقة التي تؤثر سلبا عليه فتجعل منه شخصا عدوانيا في حالة نفسية صعبة لأنه عادة ما يعاني من الكبت والاكتئاب.

أما الباعث على الضحك عند " هنري برجسون" هو اللااحساس أو اللامبالاة المؤقتة التي يشعر بها الشخص الضاحك من خلال فقدانه لأحاسيس مثل الشفقة أو التعاطف مع الشخص المضحك أثناء الفترة الزمنية التي يضحك فيها. بالإضافة إلى ذلك، يرى "برغسون" أنه لا يمكن للضحك أن يتذوق لحظة ضحكه إلا في الجماعة لأن الضحك يجب أن تكون له وظيفة اجتماعية أولا وقبل كل شيء³⁹.

وتكمن هذه الوظيفة في إصلاح وتصحيح الأخطاء الموجودة في المجتمع من خلال التخجيل حيث يقول: «إن الضحك هو قبل كل شيء تصحيح وإصلاح. لقد وضع من أجل التخجيل، وأن الضحك حين يقمع المظاهر الخارجية لبعض العيوب، يدعونا بالتالي، ومن أجل خيرنا الأكبر إلى تصحيح هذه العيوب بأنفسنا، وإلى تحسين باطننا؟، وعلى العموم يمارس الضحك وظيفة مفيدة»⁴⁰. ويبدو لنا جليا أن كل الدراسات التي اهتمت بموضوع الضحك قد تناولته من خلال عنصرين هما الضاحك والمضحك فتعددت الرؤى واختلفت المفاهيم، فلم يتوصل الباحثون إلى مفهوم موحد للضحك لاسيما وأن كل مدرسة تتمسك بأرائها وتدرس الضحك من وجهة نظر اختصاصها

³⁷ Sigmund Freud: **Jokes and Their relation to the unconscious**; Newly translated from German and edited by James Strachey, the standard Edition, 1905, P120.

³⁸ Sigmund Freud: **Le mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient**, Gallimard, France, 1969, P 222.

³⁹ هنري برغسون: **الضحك**، مرجع سابق، ص 12.

⁴⁰ هنري برغسون: **الضحك**، مرجع سابق، ص 127.

متجاهلة العديد من العوامل الأخرى، ولم تتوصل الدراسات إلى حد الآن، والتي لا تزال متواصلة، إلى مفهوم جامع وشامل يدرس هذه الظاهرة البشرية من جميع الزوايا.

خاتمة:

في الأخير يفصل الفيلسوف برغسون بين الكوميديا والتراجيديا بكون الكوميديا تعتمد على الطابع الجماعي أما التراجيديا فهي ذات طابع فردي، فالإنسان يضحك مع الجماعة ولكنه يتألم وحده ويموت وحده، وفي بداية كتابه وضع برغسون شروطا للضحك لابد أن تتوفر في شخصية المضحك والظروف المحيطة به ومنها الصلة الإنسانية فالإنسان لا يضحك على جماد أو حيوان إلا في حالة وجود شيء فيه يذكره بالإنسان، والصلة العقلانية فالإنسان لا يضحك إلا على شخصية هزلية أو موقف مضحك إلا إذا تعاطف مع هذه الشخصية، والصلة الجماعية فالإنسان لا يضحك إلا وسط الجماعة ومن هنا نلاحظ زيادة الضحك في قاعة السينما على لقطة فيلم قد تضحكنا بنسبة أقل لو شاهدناها لوحدها.

حاولنا في هذا البحث أن نلقي بعض الضوء على " الضحك هذا المجهول " (Le rire, cet inconnu)، فذلك لأن هذه الظاهرة البشرية المعقدة قد بدت لنا منذ البداية مشكلة متعددة الجوانب مترامية الأطراف، بحيث قد يسمح لنا أن نقول إن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هنالك من نماذج بشرية.

والواقع أن الضحك أمانة سيكولوجية، إن لم نقل مع بعض الباحثين بأنه أداة تشخيص "أخلاق" diagnostic moral؛ فليس غريبا أن يذهب بعض الفلاسفة إلى حد القول بأن الضحك، هو الإنسان نفسه! ولسنا نعني أن الضحك ظاهرة شخصية بحتة، كما قرر بعض الباحثين، وإنما نعني أنه مقياس للإنسان، وربما كان هذا هو ما قصد إليه مارسيل بانيول Marcel Pagnol حينما قال في خاتمة دراسته القيمة حول الضحك " قل لي مم تضحك، أقول لك من أنت " لنصل في نهاية البحث إلى حد يمكن القول فيه بأن الضحك يؤدي في حياة الأفراد والجماعات وظيفة نفسية هامة من وظائف الاتزان العاطفي، وكيف أنه السبيل إلى تحقيق ضرب من التكامل النفسي الاجتماعي.

بالنهاية الضحك عبارة عن حديث اجتماعي في الأساس، دوره أن يربط الناس بعضهم ببعض، هو لغة خفية كلنا يجيد التكلم بها، وليس الضحك ردة فعل جماعية مصطنعة، بل هو سلوك غريزي مبرمج بجيناتنا".

قائمة المراجع:

- القرآن الكريم.
- أزبوش ساميحة، (2017)، فلسفة الضحك وسيكولوجية الإنسان المتفتح، مجلة متون، جامعة مولاي الطاهر سعيدة، العدد الرابع.
- ألأرديس نيكول، (1992)، علم المسرحية، ترجمة: دريني خشبة، دار سعاد الصباح، الطبعة الثانية، الكويت.
- إلياس ماري، قصاب حنان، (2006)، المعجم المسرحي: مفاهيم ومصطلحات المسرح وفنون العرض، لبنان، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثانية.
- أمقران عبد الرزاق، (2009)، في سوسيولوجيا المجتمع: دراسات في علم الاجتماع، المكتبة العصرية، مصر.
- برغسون هنري، (1964)، الضحك، ترجمة: سامي الدروبي، عبد الله عبد الدائم، دار اليقظة العربية، الطبعة الثانية، دمشق .
- بن عمارة أمال فاطمة الزهراء، (2017)، ترجمة الكوميديا في المونولوج في ضوء المنهج السيميائي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الترجمة، معهد الترجمة، جامعة وهران 1 أحمد بن بلة.
- التهانوي علي محمد، (1996)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، المجلد الثاني، مكتبة لبنان، بيروت.
- خطاب عبد الحميد، (2006)، الضحك بين الدلالة السيكولوجية والدلالة الاستيعابية: دراسة تحليلية في ماهية الضحك الهزلي فنيا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- ديكارت رينيه، (1993)، انفعالات النفس، ترجمة: جورج زينات، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.
- رجب مصطفى، (2006)، سيكولوجية الضحك عند الجاحظ، مجلة الحرس الوطني، العدد 284، الكويت.
- الزمخشري أبي القاسم محمود، (1998)، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، مصر.
- سعيدي محمد، (1998)، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- طاليس أرسطو، (1973)، فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت.

- عبد الحميد شاكر وآخرون، (2004)، الفكاهة وآليات النقد الاجتماعي، مطبوعات مركز البحوث الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى.
- عبد الحميد شاكر، (2003)، الفكاهة والضحك: رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد 289، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- العقاد محمود عباس، (2007)، جحا الضاحك المضحك، دار الهلال، مصر.
- قزيحة رياض، (1998)، الفكاهة في الأدب الأندلسي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت.
- كاظم زهير، (2010)، في الضحك والكوميديا، دار الكتب والوثائق، بغداد.
- مجموعة من المؤلفين، (1982)، الفكاهة والضحك، مجلة عالم الفكر، المجلد 02، العدد 12، الكويت.
- هوبز توماس، (2011)، اللفيathan (Léviathan) الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، تقديم: ترجمة: ديانا حبيب حرب، بشرى صعب، رضوان السيد، دار الفارابي، الطبعة الأولى، بيروت.
- Defays Jean-Marc, (1999), *Les problèmes de l'analyse du discours comique in Approches du discours comique*, Belgique, éditions Mardaga.
- Freud Sigmund, (1905), *Jokes and Their relation to the unconscious* ; Newly translated from German and edited by James Strachey, the standard Edition.
- Freud Sigmund, (1969), *Le mot d'esprit et ses rapports avec l'inconscient*, France, Gallimard.
- Helmuth Plessner, (1995), *Le rire et le pleurer : une étude des limites du comportement humain*, traduction : Mannoni Olivier, France, Les Editions de la MSH .
- Karadimos Dimitri, (2009), *l'art du comique*, éditions Publibook France.